أعمال ندوة
السيرة النبوية في الكتابات البلجيكية

البحث السابع

المستشرق البلجيكي أرمان آبل

Armand Abel

(1903 – 1973م)

واهتمامه بالجدل البيزنطي المغرض حول السيرة النبوية

د. علي محمد علي عودة الغامدي
(جامعة أم القرى – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية)

البحث السابع:

المستشرق البلجيكي أرمان آبيل Armand Abel

(1903- 1973م)

واهتمامه بالجدل البيزنطي المغرض حول السيرة النبوية

د. علي محمد علي عودة الغامدي

(جامعة أم القرى- مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية)

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ،،، وبعد:

يعتبر المستشرق البلجيكي أرمان آبيل، من أشهر المستشرقين الغربيين، الذين اهتموا بالمجادلات بين المسلمين والنصارى. وقد وُلد في بلده "أوكل Ucele"، في بلجيكا، في 11 يونية 1903م. والتحق بالجامعة الحرة في بروكسل، وتخصص في اللغتين اليونانية واللاتينية، وانتدب إلى الجامعة المصرية سنة 1925م، حيث عُيِّن مدرساً للغتين اللاتينية واليونانية، في كلية الآداب. وظلّ في مصر، حتى سنة 1928م، حيث تعلّم اللغة العربية، وأقبل على دراسة الفنون الإسلامية، وكتب عدة مقالات عن تاريخ الخزف الإسلامي في مصر. ثم عاد إلى بلجيكا، مواصلاً الدراسة والتدريس.[1] وفي سنة 1949م، أنجز في جامعة بروكسل، أطروحته للدكتوراة، عن جدل أبي عيسى الورّاق، بعنوان: ((الرد على الثلاث فرق من النصارى لأبي عيسى الورّاق))

La Réfutation Des trois Sectes Chrétiennes D'Abu- Isa al – Warraq, Bruxelles[2]

وقد اهتم آبيل بالكثير من موضوعات العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. وله مباحث عديدة في ميدان الفكر الإسلامي، عقيدة وشريعة، وتاريخ الجدل

---

(1) موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، طبعة بيروت، 1993م، ص12؛ المستشرقون، نجيب العقيقي، القاهرة، 1980م، ج3/ ص232.

(2) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عبد المجيد الشرفي، طبعة تونس، 1986م، ص142-143، 546.

الإسلامي المسيحي.[1] على أن ما يهمنا هنا، هو اهتمامه بالجدل البيزنطي المغرض حول السيرة النبوية. ومن أهم دراساته في هذا المجال، ما يلي:

- Le Chapitre CI du Livre des Heresies de Jean Damrnoscne, Son inauthenticité, Studia Islamica (1963), pp. 5-25.

- La Lettre Polémique d'Arethas a l'Emir de Damas, Byzantion, Vol. 24, N. 2 (1954), pp. 343-370.

- La (Réfutation d'un Agarène) de Barthelemy, Studia Islamica (1973), pp .5-26.

والبحث الأول، يدرس فيه أرمان آبيل الفصل المنسوب ليوحنا الدمشقي (34-132هـ/ 655-750م)، المعروف باسم ((هرطقة الإسماعيليين)). بيد أن دراسة آبيل، تتركز على موثوقية هذا الفصل، وهل هو فعلاً من تأليف يوحنا الدمشقي، أو من عمل مؤلف جاء بعده، حيث يُرجّح آبيل أن ما جاء في هذا الفصل عبارة عن جدل بيزنطي متأخر. وأهم حجج آبيل في هذا الترجيح، أن هذا الفصل موجود بكامله في الكتاب العشرين، من مصنّف (العقيدة الأرثوذكسية)، التي يقبلها آبيل بوصفها من تأليف الكاتب البيزنطي نيفتاس أكومينانوس Nicetas Acominatus، الذي عاش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.[2] لكن الأستاذ دانيال ساهاس، الأستاذ في جامعة واترلو Waterloo، فنّد هذا الترجيح لأرمان آبيل، وأثبت أن فصل (هرطقة الإسماعيليين) من تأليف يوحنا الدمشقي، وأنه جزء من كتابه الكبير، المعروف بعنوان (ينبوع المعرفة The Fount of Knowledge)، حيث صنّف الأستاذ دانيال كتاباً مسهباً عن يوحنا الدمشقي، وعلاقته

(1) انظر عن ذلك: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص12-13؛ المستشرقون، نجيب العقيقي، ج3/232-234.

(2) Abel, Armand: Le Chapitre CI du Livre Des Heresies de Jean Damascene: son inauthenticité, Studia Islamica, N. 19 (1963), pp. 5-25.

بالإسلام، وفصله المعروف بهرطقة الإسماعيليين، وترجم في آخر كتابه (بالملحق الأول) النص من اليونانية إلى الإنجليزية.[1]

ولا يهمنا هنا موثوقية نسبة هذا الفصل إلى يوحنا الدمشقي أو غيره، فهو في المحصلة جدل بيزنطي مغرض حول السيرة النبوية، وقد أسهم إلى حد بعيد، في صياغة وجهة النظر الغربية، إزاء الإسلام ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، حتى العصور الحديثة. وإنما المهم فيما نحن بصدده، مضامين هذا الفصل، المتعلقة بالسيرة النبوية، وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقبل أن نستعرض مضامين فصل يوحنا الدمشقي، يجدر أن نشير إلى أن أرمان آبيل وغيره من الباحثين الغربيين، اعتبروا يوحنا الدمشقي المؤسس الجدي، والرائد الأول، للحوار المسيحي الإسلامي.[2] وهذا الرأي – في الواقع –، فيه تجنٍ واضح على الحقيقة التاريخية. فلم يحدثنا التاريخ، ولم نسمع أن يوحنا الدمشقي – وهو أشهر علماء الكنيسة في عصره –، قد دخل في حوار أو جدل مباشر مع علماء الإسلام المعاصرين له، بغية الوصول إلى الحق، مثل الحسن البصري، والأوزاعي، ومالك بن أنس، وعكرمة مولى ابن عباس، ومكحول الشامي، وغيرهم. والحق، أن يوحنا الدمشقي بفصله هذا – ليس الرائد الأول للحوار المسيحي الإسلامي، بل هو الرائد الأول، والمؤسس الحقيقي لكل الصور المشوهة والمحرفة عن الإسلام، وواضع المنهج الأساسي للعدوان الفكري الغربي على الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ذلك أن يوحنا الدمشقي، كان يهدف إلى بناء موقف نصراني شديد العداء للإسلام، عن طريق تشويه صورة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتلفيق صور خيالية جامحة، لا أساس لها من الواقع التاريخي، بهدف تقوية إيمان جمهور النصارى بدينهم، ومنعهم من التأثر بالإسلام، وتحصينهم بتلك الصور المشوهة والمحرفة عنه، للحيلولة بينهم وبين اعتناقه.

---

(1) Sahas, Daniel J.: John of Damascus on Islam the Heresy of the Ishmaelites, Leiden (1972), pp 60-66, 133-141.

(2) Abel: op. cit., pp. 5-6, Sahas: op. cit., pp. XXIII, 129, Danial Norman: Islam and the West the Making of an Image, (Oxford, 2000), pp. 13 – 14.

يبدأ يوحنا الدمشقي فصله بعنوان (هرطقة الإسماعيليين)، ويقصد بالإسماعيليين العرب المسلمين، الذين هم من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وبهذا العنوان، يُوطّد يوحنا الدمشقي، لموقف مسبق سلفاً، لكل نصراني يقرأ فصله، بأن ينظر للإسلام بوصفه هرطقة. وبعد العنوان، يشرع يوحنا الدمشقي في حديثه الظالم عن الإسلام، فيقول: (يوجد هناك ذلك المعتقد الخرافي المضلِّل للإسماعيليين، الذي لا يزال منتشراً، وهو السابق للمسيح الدجال)[1]. وهنا نلاحظ، أن يوحنا الدمشقي، أول كاتب نصراني طبق النبوة النصرانية، التي تخبر بحدوث ردة على المسلمين قبل مجيء المسيح الدجال.[2] وأخذها عنه كثير من الكتّاب الغربيين في أوروبا، خلال العصور الوسطى.

ثم يعلل يوحنا الدمشقي تسميته للمسلمين بالإسماعيليين، فيقول: إن هذه التسمية تأخذ أصلها (من إسماعيل الذي وُلدَ لإبراهيم من هاجر. وذلك هو السبب في أنهم يُدعون هاجريين وإسماعيليين. وهم أيضاً يُدعون ساراقينوس بالادّعاء، لأنها طُردت من جانب العقيمة سارة، حيث أن هاجر قالت للملاك (سارة طردتني بعيداً جائعة)[3]. وهنا نلاحظ، أن يوحنا الدمشقي، يشير إلى التسمية البيزنطية المبكرة للمسلمين، باسم ساراقينوس، التي وصفوا بها العرب المسلمين أبناء إسماعيل عليه السلام. وقد تسللت هذه الكلمة بعد التحوير والتعديل، إلى اللغة اللاتينية، ومنها إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وقد أثارت الكلمة حيرة الباحثين الغربيين، فحاولوا تفسيرها. فلم يستطع أحد منهم الوصول إلى التفسير الصحيح للكلمة، ودخلوا في نقاشات عقيمة، لا جدوى منها.[4] ولكني وجدت التفسير السليم لهذه

---

(1) Sahas: op. cit., p. 134.

(2) جاءت هذه النبوة في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي، حيث جاء فيها قول بولس: (ثم نسألكم أيها الأخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه، أن لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم، ولا ترتاعوا بروح ولا كلمة ولا برسالة كأنها منا، أي أن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما، لأنه لن يأتي، إن لم يأت الارتداد أولاً، ويستعلن إنسان الخطيئة ابن الهلاك)؛ والإصحاح الثاني: 1-4.

(3) Sahas: op. cit., p. 134.

(4) Southern. R. W: Western Views of Islam in the Middle Ages, (London, 1978), p. 17 and note, 11; Daniel, Norman: The Arabs and Mediaeval Europe. (London, 1975). p.53,

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، الأمير شكيب أرسلان، بيروت، 1983م، حاشية رقم2، ص261-262.

الكلمة، بعد العثور على نص عند المؤرخ المسلم المسعودي، فكان هو المفتاح لتفسير هذه الكلمة. ذلك أن الرؤية البيزنطية المغرضة – المؤسسة على آراء يوحنا الدمشقي – تجاه العرب المسلمين، لم تقتصر على الهجوم الحاقد على دينهم ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، بل إن الاسم الذي أطلقوه على العرب المسلمين – سيما بعد انتصارات المسلمين عليهم في بلاد الشام ومصر وغيرها –، يتضمن التحقير والإهانة. يقول المسعودي عن الإمبراطور نقفور الأول (186–195هـ/ 802–811م)، ما نصه: (وأنكر على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس، تفسير ذلك عبيد سارة، طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وأنها كانت أمة لسارة، وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب، والروم إلى هذا الوقت – أي زمن المسعودي – تُسمي العرب سارافينوس)[1].

وهذه الكلمة تنطق باللغة اليونانية المتأخرة – في العصر البيزنطي – Sarakenos، تماماً مثلما أوردها المسعودي. وقد انتقلت إلى اللغة اللاتينية – كما هو معروف للمؤرخين – في سائر المصادر اليونانية واللاتينية، التي تتحدث عن العلاقات مع العرب والمسلمين. وتشير معاجم وقواميس اللغات الأوروبية، إلى أن كلمة سرازاني Saracen، التي تعني عربي أو مسلم، مأخوذة من سارة، زوجة إبراهيم، المذكورة في الكتاب المقدس. وكلمة Sarcasm، تأتي بمعنى سخرية أو تهكم، وهي تعني في القاموس، كلمة جارحة، ساخرة، تهدف إلى الانتقاص من الشيء الذي تطلق عليه، أو الغمز فيه. والفعل الإغريقي الأصلي للكلمة، هو Sarkazein، ومعناه: يعظ شفتيه من الغيظ.[2] وبهذا يتضح، أن أصل الكلمة، هي ساراقينوس، وهي كلمة رومية – بيزنطية –، بمعنى عبيد سارة، تحقيراً للمسلمين، وحطاً من مكانتهم وقدرهم. والعجب، أننا لم نجد في المصادر البيزنطية، أن أحداً من الروم أطلق هذه التسمية على العرب النصارى، وإنما قصروها على العرب المسلمين.

---

(1) التنبيه والإشراف، المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت 350هـ/961م)، تصحيح عبد الله الصاوي، القاهرة، 1357هـ/ 1938م، ص143.

(2) الرؤية الأوروبية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى، علي محمد عودة، ضمن كتاب: العرب وأوروبا عبر العصور، حصاد (7)، ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره في القاهرة، 1420هـ/1999م، ص64.

وبعد ذلك، يتحدث يوحنا الدمشقي عن العرب (أبناء إسماعيل) في الجاهلية، فيقول: (هؤلاء – بعد ذلك – كانوا وثنيين، وهم يجّلون نجمة الصباح، وأفروديت Aphrodite التي هم على نحو بارز دعوها هابار Habar في لغتهم الخاصة، التي تعني "عظيم"؛ لذلك، حتى زمن هرقل هم كانوا وثنيين، بدون شك)[1]. وهنا نلاحظ، أن يوحنا الدمشقي، لم يكتف بالإشارة إلى حقيقة، أن العرب (أبناء إسماعيل)، كانوا وثنيين في الجاهلية –، وهي الوثنية التي حاربها القرآن الكريم، وقضى عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم –، بل عمد يوحنا الدمشقي إلى التلفيق والاختراع، فزعم أن العرب يجّلون نجمة الصباح، أي الزهرة، وهي التي سماها الرومان Venus، وعبدوها بوصفها إلهة الحب والعشق والجمال. كما زعم أن العرب عبدوا أفروديت Aphrodite، وهي التي عبدها الإغريق، واعتبروها إلهة الشهوة والحب والجمال. وقد كان لهذه الفرية، أثرها البعيد على كُتّاب الغرب، الذين بنوا عليها خيالات جامحة، وتصورات عجيبة، حيث فسروا بعض شعائر الإسلام من منظور جنسي شهواني.[2]

وبعد ذلك، ينتقل يوحنا الدمشقي إلى حديثه المغرض عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول: (وبعد ذلك، ظهر بينهم رسول كاذب – وحاشاه أن يكون كذلك – يُدعى معميث Mameth، الذي كان بالمصادفة قد تعرض للعهد القديم والعهد الجديد، والمعتقد أنه قابل راهباً أريوسياً، الذي صاغ له هرطقته الخاصة)[3]. وهنا، نجد أن يوحنا الدمشقي، يصف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالكاذب، مثلما قال كفار قريش من قبل، قال تعالى: (... وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب)[4]. والملاحظ، أن يوحنا الدمشقي يخطئ في لفظ وكتابة اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول معميث Mameth. وجدير أن نشير هنا، إلى أن جميع الكُتّاب البيزنطيين والغربيين، الذين كتبوا عن محمد صلى الله عليه وسلم بصورة مغرضة، حقودة، شديدة الطعن، وبعبارات تتسم بالهذر

(1) Sahas: op. cit., p. 134.

(2) Danuel: Islam and the west, pp. 177-180.

(3) Sahas: op. cit., p. 134.

(4) سورة ص: 4.

والإسفاف والسفه، واستخدموا الكلمات النابية، والألفاظ البذيئة، وقعوا فيما وقع فيه يوحنا الدمشقي، فلم يستطيعوا أن يلفظوا أو يكتبوا اسمه بشكل صحيح. فلا نجد في اسمه – في أغلب الأحيان–، حرف الدال **D**، الذي يُعد ركناً أساسياً في اسمه. والحرف موجود في اللغة اليونانية، واللاتينية، وسائر اللغات التي تفرّعت منها. أما حرف الحاء، فلا يوجد عندهم مطلقاً، فهم يشتمون موميث Muameth، وموعمت Moamet، وماهمث Mohmeth، وماهوميت Mahometh، وماكوميتوس Macometus، ونحو ذلك.[1] وهذا يذكّرنا بنزول سورة ((تبت يدا أبي لهب...))[2]، حين جاءت أم جميل بنت حرب، امرأة أبي لهب، وهي تُنشد: مُذَمَّمٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فسألت أبا بكر إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد هجاها، فنفى ذلك. وكان الكفار من قريش من شدة كراهتيهم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يسمونه باسمه، الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده، فيقولون: مذمم. وإذا ذكروه بسوء، قالوا: فعل الله بذمم. ومذمم ليس اسمه، ولا يعرف به. فكان الذي يقع منهم في ذلك، مصروفاً إلى غيره. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفرح، لأن المشركين يسبّون مذمماً، فيقول: (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ ويشتمون مذمماً، يلعنون مذمماً، وأنا محمد)[3]. وهكذا سار يوحنا الدمشقي، ومن جاء بعده من الكُتّاب البيزنطيين والغربيين في العصور الوسطى، على خطى كفار قريش. فهم يشتمون معميث، وموعميث، وماهمث، وما هوميث، وماكمتنوس، وماهوم، وماهوند، ونحو ذلك. حيث صُرفوا عن اسمه الحقيقي الدال عليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا إعجاز في حد ذاته، ودليل من دلائل نبوّته صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الرؤية الأوروبية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى، علي محمد عودة، ص65.

(2) سورة المسد: 1.

(3) صحيح البخاري (فتح الباري، طبعة القاهرة، 1409هـ/1988م)، حديث رقم 3533، ج6/ ص641، 645؛ وانظر أيضاً: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، طبعة المدينة المنورة، 1412هـ/1992م، ج1/ ص147– 148.

ويزعم يوحنا الدمشقي، أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعرّض أو تعرّف على العهد القديم، والعهد الجديد[1] [الكتاب المقدس عند أهل الكتاب]. وهذه فرية يشهد الواقع التاريخي بكذبها، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب. قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)[2]. "فحتى على فرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا. فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر، فهو أكبر جداً من طاقة البشر، ومعرفة البشر، وآفاق البشر. والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة، كالحق الذي في هذا الكون. وكل وقفة أمام نصوصه، توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدران عن بشر"[3]. غير أن هذا الزعم الباطل، الذي اخترعه يوحنا الدمشقي، انتشر عند كُتّاب الغرب طوال العصور الوسطى، وتلقّفه عنهم المستشرقون في العصور الحديثة، بدون فحص أو تفكير.

ويزعم يوحنا الدمشقي، أن محمداً صلى الله عليه وسلم (قابل راهباً أريوسيا، وهو الذي شكّل له هرطقته الخاصة)[4]. ويبدو أن يوحنا الدمشقي يشير هنا إلى قصة الراهب بحيرا، دون أن يصرّح باسم ذلك الراهب. وهذه القصة وردت في بعض كتب الحديث والسيّر، بأسانيد مرسلة وضعيفة. وملخصها، أن أبا طالب اصطحب معه في إحدى رحلاته التجارية إلى الشام، محمداً صلى الله عليه وسلم، وهو لا يزال في سن مبكرة، في التاسعة أو العاشرة، أو الثانية عشرة من عمره، على اختلاف الروايات، وأن راهباً نصرانياً يدعى بحيرا، دعا أبا طالب وأصحابه إلى طعام في صومعته بمدينة بصرى بالشام، وأنه تعرّف

---

(1) Sahas: op. cit., p. 134.

(2) سورة العنكبوت: 48.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج5/ ص2746.

(4) Sahas: op. cit., p. 134.

والأريوسي نسبة إلى أريوس السكندري (حوالي 250– 336)، الذي قال بأن المسيح مخلوق بشر، وأنه أقل من الله في الجوهر، وبالتالي فإنه أقل منه مرتبة، وأنه كان هناك وقت لم يكن فيه المسيح موجوداً، وكان فيه الله الخالق وحده. فأنكر أريوس ألوهية المسيح، وأنكر صفة الشبه بين الله والمسيح. انظر: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، حسنين محمد ربيع، القاهرة، 1403هـ/1983م، ص28–29.

على محمد صلى الله عليه وسلم، وعرفه بخاتم النبوة بين كتفيه، وأعلن أنه هو النبي المنتظر، وأنه حذر عمه أبا طالب من أن يراه اليهود أو الروم، فإنهم سيقتلونه، فأعاده أبو طالب إلى مكة.[1] وقد فنّد الذهبي هذه القصة سنداً ومتناً.[2]

وحتى لو افترضنا جدلاً صحة الرواية، ولقاء النبي صلى الله عليه وسلم في صغره بالراهب بحيرا، فهو لقاء لم يتجاوز ساعة طعام، سأل فيها الراهب عن الصغير محمد وأحواله، ولم يتحدث معه في شيء من أمور الدين. وكان غالب حديثه مع عمه. هذا فضلاً عن حاجز اللغة بين الجانبين. وهكذا يزعم يوحنا الدمشقي، أن ذلك الراهب بحيرا، هو الذي صاغ للنبي محمد صلى الله عليه وسلم دين الإسلام، الذي يسمه (هرطقته الخاصة). وهذا يكشف مدى الظلم والبغي، الذي ذهب إليه يوحنا الدمشقي. فهل بمقدور لقاء قصير – مشكوك في صحته –، بين طفل صغير وراهب مغمور، أن يكون أساساً لعقيدة سامية، وشريعة كاملة، وسلوك إنساني رفيع، ومنهج حياة مفصل، غيّر مجرى التاريخ البشري بأكمله، وقلبه رأساً على عقب، وأخرج البشرية من الظلمات إلى النور؟؟؟؟

ومن عجب، أن هذه الفرية، التي قال بها يوحنا الدمشقي، قد انتقلت منه إلى كثير من كُتّاب العصور الوسطى، وبنوا عليها خيالات جامحة، ونقلها عنهم كثير من المستشرقين في العصور الحديثة.[3]

وبعد هذه الفرية الداحضة، يواصل يوحنا الدمشقي حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: (وفيما بعد، عن طريق الادعاء، هو دبّر أن يجعل الناس يعتقدون فيه، بوصفه مرافقاً لخشية الله. ثم نشر إشاعات، أن كتاباً مقدساً أُنزل إليه من السماء. وهكذا

---

(1) المصنف، ابن أبي شيبة، تحقيق مختار الندوي، بومباي – الهند 1403هـ/1983م، ج1/ ص286–289؛ زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخيه، بيروت، 1405هـ/1985م، ج1/ص76–77.

(2) السير النبوية، الذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، بيروت، 1409هـ/1998م، ص28.

(3) Kritzeck, James : Peter the Venerable and Islam (Princeton University press, New Jersey, (1964), pp. 129–132; Dainel : Islam and the West, pp. 107–110.

السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ج1/ ص110.

هو أعدّ بعض الآراء في كتابه الجديرة فقط بالضحك، وسلّمه إليهم بالتسلسل الذي يجعلهم يستجيبون له. فهو يقول: إنه يوجد هناك رب واحد خالق للكل، الذي لم يلد ولم يولد)[1].

ونلاحظ هنا، في بداية العبارة، أن يوحنا الدمشقي يضع قاعدة لتحريف وتشويه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في عيون قرائه النصارى، إذ يشير باقتضاب إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، حيث أجمعت مصادر السيرة على أن الله تعالى حفظ رسوله وصانه قبل البعثة من الوقوع في أقذار الجاهلية. فلم يسجد لصنم قط، وكان يتجنب كل العادات والأفعال السيئة، التي كان يغشاها أقرانه في الجاهلية، واشتهر بالأخلاق الحميدة، حتى عرفه قومه بلقب الصادق الأمين.[2] وهنا يصل البغي والعدوان بيوحنا الدمشقي حداً، يجعله يعتبر كل هذا ادِّعاءً وتدبيراً منه، ليجعل الناس يعتقدون أنه كان مرافقاً لخشية الله.

ثم ينحدر يوحنا الدمشقي إلى درجة الهذر والسفه، عندما يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم (نشر إشاعات، أن كتاباً مقدساً أُنزل إليه من السماء، وهكذا هو أعدّ بعض الآراء في كتابه الجدير بالضحك). ويوحنا الدمشقي يعلم أنه يتوجه بخطابه هذا، إلى نصارى لا يتحدثون إلا باليونانية، ويريد أن يحصِّنهم ضد اعتناق الإسلام. ولا يمكن أن يتحقق له هذا، إلا بالكذب والتشويه، فزعم – زوراً وبهتاناً –، أن ما جاء في القرآن مجرد آراء، أعدها النبي صلى الله عليه وسلم، جديرة فقط بالضحك. ولو أن يوحنا الدمشقي كان منصفاً مع قرائه، لقدّم لهم ترجمة أمينة لبعض سور وآيات القرآن الكريم، وترك الحكم لهم، دون أن يعطيهم حكماً مسبقاً ظالماً، بأن القرآن مجرد إشاعات جديرة بالضحك. ويكتم عنهم عقائد القرآن وشرائعه وآدابه، التي تتفق في أصولها وأسسها مع ما جاء به الأنبياء، من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

أما قول يوحنا الدمشقي عن القرآن، (هو سلّمه إليهم بالتسلسل، الذي هم يمكن يستجيبون له)، فهو يشير إلى نزول القرآن منجماً في ثلاث وعشرين سنة، حسب الحوادث

---

(1) Sahas: op. cit., p. 134.

(2) انظر مثلاً: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ج1/ ص114–117؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، الرياض، 1412هـ/ 1992م، ص125–140.

والوقائع. وكأن يوحنا الدمشقي، يعترض على هذا التسلسل في نزول القرآن. ويكرر بذلك اعتراض المشركين على نزول القرآن منجماً. واقتراحهم أن ينزل القرآن جملة واحدة، كما أُنزلت الكتب السابقة، قال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً)[1].

ويتحدث يوحنا الدمشقي في آخر فقرته الآنفة، عن عقيدة التوحيد بطريقة باهتة ومبسترة وهزيلة، لا تعبر عملياً عن حقيقة التوحيد، كما جاءت في القرآن الكريم، فيقول: (هو– محمد صلى الله عليه وسلم – يقول إنه يوجد هناك رب واحد خالق للجميع، الذي لم يلد ولم يولد). فيُقدّم يوحنا الدمشقي الله الواحد الأحد، بصيغة النكرة: رب واحد، ويقدِّم أيضاً اسم الخالق، بصيغة النكرة: خالق. وهذا العرض، يمكن أن يقال لكل من دعا إلى عبادة معبود واحد، مثل الفرعون المصري أخناتون، الذي دعا إلى نبذ عبادة الآلهة المتعددة، ودعا إلى عبادة إله واحد، زعم أنه خالق كل شيء، ورمز له بقرص الشمس.

وينتقل يوحناً الدمشقي إلى عرض عقيدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عيسى بن مريم، كما جاءت في القرآن الكريم، فيقول: (هو – محمد صلى الله عليه وسلم – يقول: إن المسيح كلمة الله وروحه، مخلوق وخادم، وأنه وُلد بدون منيٍّ من مريم أخت موسى وهارون، لأنه يقول كلمة الله، وروحه دخلت إلى مريم، وهي التي منحت الولادة ليسوع، الذي كان رسولاً وخادماً لله. وأن اليهود الذين انتهكوا بأنفسهم حرمة الشريعة، أرادوا أن يصلبوه، وأنهم بعدما قبضوا عليه هم صلبوا شبيهه، لكن المسيح نفسه، لم يصلب ولم يمت، نظراً لأن الله أخذه إلى فوق السماء، لأنه يُحبّه، ويقول: إنه بعد ما ذهب المسيح فوق السماوات، سأله الله قائلاً: يا عيسى، أأنت قلت إنني ابن الله، وأنا الله؟ وأن عيسى أجاب: كن رحيماً بي يا رب، أنت تعلم أني لم أقل ذلك، ولا أرغب أن أقوله، أنا أفتخر بأني خادمك، لكن الناس الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم، كتبوا أني فعلت هذا، ثم إن الرب أجابه: أنا أعلم أنك لن تقول هذا الشيء)[2].

---

(1) سورة الفرقان: 32.

(2) Sahas : op. cit., p. 135.

وإذا تأملنا هذا النص، يمكن أن نخرج بعدد من الحقائق، هي:

أولاً: استطاع يوحنا الدمشقي أن يحدد بشكل صحيح – رغم بعض الأخطاء – رؤية القرآن الكريم لعيسى بن مريم عليه السلام، وهذا يكشف معرفة يوحنا الدمشقي الجيدة بالقرآن الكريم، ولكنه اختار الضلال والإضلال.

ثانياً: العقيدة الإسلامية حول عيسى بن مريم، واضحة وضوح الشمس، مثلما جاءت في القرآن الكريم، قال تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا)[1]. ومعنى كلمة الله، أي كلمة تكلم بها الله، فكان بها عيسى، ولم يكن هو تلك الكلمة، وإنما كان بها. وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله: (وروح منه)، أي من الأرواح التي خلقها، وكمّلها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة. أرسل الله الروح القدس، جبريل عليه السلام، فنفخ في مريم، فحملت بأمر الله بعيسى عليه السلام.[2] وبالإضافة إلى هذا، فإن كلمة الله (كن)، التي كان بها المسيح، ليس إلا كلمة واحدة من كلمات الله، التي لا تُحصى، ولا تنفد، ولا تنتهي.[3] قال تعالى: (قل لو كان البحر مدادا لكلماتي ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)[4].

ثالثاً: كان هدف يوحنا الدمشقي من قوله: إن المسلمين يقولون عن مريم: إنها أخت موسى وهارون، إثارة الاستنكار والسخرية في نفوس النصارى من هذا القول، حيث يعرفون

---

(1) سورة النساء: 171–172.

(2) انظر: تفسير ابن كثير، 425/2.

(3) انظر: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ابن تيمية الحراني، تحقيق علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ، ج4/ ص5–26.

(4) سورة الكهف: 109.

مدى الفاصل الزمني الكبير، بين عصر مريم وعصر موسى وأخيه هارون عليهما السلام. والملاحظ هنا، أن يوحنا الدمشقي، أضاف أن المسلمين يقولون أخت موسى. وهذا لم يرد مطلقاً، لا في القرآن، ولا في السنة، وإنما ورد لفظ (يا أخت هارون)، وليس المقصود به هارون بن عمران عليه السلام. وقد سبق نصارى نجران، يوحنا الدمشقي، في إثارة هذه الشبهة، قبل قدوم وفدهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ روى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه خبر ذلك، فقال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران، فقالوا لي: ألستم تقرأون: (يا أخت هارون)، وقد كان بين موسى وعيسى ما كان؟ – من العصور – فلم أدْرِ ما أُجيبهم، فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: ((ألا أخبرتهم، أنهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم))[1]. ويذكر ابن كثير، أنه قيل لها: (يا أخت هارون)، أي أخي موسى، وكانت من نسله، كما يقال للتميمي، يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر.[2]

ويواصل يوحنا الدمشقي حديثه المتهافت السفيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن القرآن، فيقول: (ومع أنه يحشو في هذا الكتاب سخافات كثيرة جداً، قيِّمة للضحك، فإنه يُلح بإصرار، أن هذا أُنزل عليه من الله. ونحن نسأل: وما هو الشيء الذي يهب له الشهادة، أن الله أعطى له الكتاب المقدس؟ ومن هم الأنبياء الذين تنبأوا، أن هذا نبيٌ سوف يظهر؟ ولأنهم – يعني المسلمين – يصبحون مذهولين وفي خسران، نحن نخبرهم أن موسى تسلّم الشريعة بجبل سيناء، في مرأى من جميع الشعب، عندما ظهر الرب في السحاب والنار والظلمة والعاصفة، وأن جميع الأنبياء ابتداءً من موسى وإلى الإمام، تنبأوا وبمجيء المسيح، وأن المسيح هو الله، وأن ابن الله سوف يأتي لاتخاذ الطبيعة البشرية، وأنه سوف يصلب، وأنه سوف يموت، وأنه سوف يكون الحكم للأحياء والأموات على قدم المساواة)[3].

---

(1) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب تفسير سورة مريم، حديث رقم (3155)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

(2) تفسير ابن كثير، 201/5.

(3) Sahas : op. cit., p. 135.

وإذا تأملنا هذا النص، نلاحظ أن يوحنا الدمشقي، انحدر إلى مستوى بالغ الانحطاط، في الهذر والإسفاف، حين يزعم – زوراً وبهتاناً – لقرائه النصارى، أن محمداً صلى الله عليه وسلم يحشو القرآن بسخافات كثيرة جداً، جديرة بالضحك. وقد وضع يوحنا الدمشقي بهذا القول، قاعدة لكُتّاب الغرب في العصور الوسطى، تقوم على الإفك والبهتان، فساروا عليها. وتتمثل تلك القاعدة، في اختراع تصورات خيالية، عن معتقدات وشرائع سخيفة لا تمت للإسلام بصلة، وزعموا أنها من عقائد الإسلام وشرائعه، فهاجموها وسخروا منها.[1]

ويفتري يوحنا الدمشقي الكذب، حين يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم (يُلح بإصرار أن هذا أُنزل عليه من الله)، وهو يشير بذلك إلى الآيات الكثيرة جداً في القرآن العظيم، التي تُخبر بأنه تنزيل من رب العالمين، مثل قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً)[2]، وقوله تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون)[3]، وقوله تعالى: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[4]، وقوله تعالى: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[5]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

وعندما يسأل يوحنا الدمشقي مستنكراً، أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول: (وما هو الشيء الذي يهب له الشهادة، أن الله أعطى له الكتاب المقدس؟ ومن هم الأنبياء الذين تنبأوا أن هذا نبي سوف يظهر؟)، فالحق أن يوحنا الدمشقي وهو يقدّم هذا التساؤل، يريد أن يوطِّد في قرائه، الصور المشوهة التي رسمها لسيرة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم. وبهذا يُقدم لهم حكماً مسبقاً، بأن لا أحد يشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم، بأن القرآن أُنزل عليه من الله تعالى. وأنه لا أحد من الأنبياء أخبر بظهوره.

---

(1) Daniel: Islam and the West, pp. 35, 271–276.

(2) سورة النساء: 105.

(3) سورة الأنبياء: 10.

(4) سورة العنكبوت: 51.

(5) سورة الزمر: 1.

أما الشهادة التي يتجاهلها يوحنا الدمشقي، والتي تثبت قطعاً، أن الله أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، فهي شهادة الله جل وعلا لرسوله، وهي أعظم وأكبر وأعدل شهادة. وشهادة ملائكته المقربين، قال تعالى: (لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً)[1]، وقال تعالى: (قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم، وأحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد، قل إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون)[2]، وقال تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيداً)[3]، وقال تعالى: (ويقول الذين كفروا لست مرسلا، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب)[4]، وقال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً)[5]. فالله جل وعلا، هو الشاهد الحق، على أنه الذي أنزل القرآن على رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أثبت شهادته برفع ذكر نبيه في العالمين ونصره على سائر أعدائه، نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وإجابة دعوته، وإجراء المعجزات على يديه. وأعظم تلك المعجزات، القرآن الكريم، معجزته الخالدة، التي تحدى الله بها المكذبين، بل سائر الإنس والجن، أن يأتوا بمثلها، قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[6]. "وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وشهادة حاسمة، من الله عز وجل، على أنه أنزله إلى رسول الله، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر الخبر اليقين القاطع، أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله، ولم يقدروا عليه.[7] وقال

---

(1) سورة النساء: 166.

(2) سورة الأنعام: 19.

(3) سورة النساء: 79.

(4) سورة الرعد: 43.

(5) سورة الفتح: 28.

(6) سورة الإسراء: 88.

(7) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص466.

تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين)[1]. ففي هاتين الآيتين، يشهد الله جل وعلا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق في دعواه، أن هذا القرآن أُنزل عليه من رب العالمين. ومن ينكر هذه الدعوى، أو يرتاب فيها من الخلق فدونهم، فليأتوا بسورة من مثله، وليدعوا من يشهد لهم بهذا. وقد علّق الأستاذ سيد قطب على هاتين الآيتين، بقوله: "وهذا التحدي ظل قائماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعدها، وما زال قائماً إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها... وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر، تميزاً واضحاً قاطعاً، وسيظل كذلك أبداً، وسيظل كذلك تصديقاً لقوله تعالى: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[2]. "والتحدي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب. ولو كان في الطاقة تكذيبه، ما توانوا عنه لحظة. وما من شك، أن تقرير القرآن الكريم، أنهم لن يفعلوا، وتحقُّق هذا كما قرَّره، هو بذاته معجزة، لا سبيل إلى المماراة فيها. ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع، لانهارت حجية القرآن، ولكن هذا لم يقع، ولن يقع كذلك. فالخطاب للناس جميعاً، ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس.. وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية"[3]. هذا فضلاً عن، أكثر من ألف معجزة حسية، أجرها الله تعالى على يد نبيه في زمنه، وما أخبر به من أمور مستقبلية، تتعلق بأصحاب وأهل بيته وأمته وغيرهم من الأمم، حتى قيام الساعة.[4]

أما إنكار يوحنا الدمشقي، بأن الأنبياء السابقين قد أخبروا بظهور محمد صلى الله عليه وسلم. فهو زعم كاذب، والحق أن علماء أهل الكتاب، يعلمون علم اليقين، أن محمداً

---

(1) سورة البقرة: 23-24.

(2) سورة البقرة: 24.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج1/ ص48-49.

(4) الجواب الصحيح، ابن تيمية، ج1/ ص99؛ وانظر أيضاً: ج6 من الجواب الصحيح، حيث يتحدث فيه عن تلك المعجزات؛ وانظر أيضاً: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ج2/ ص611-623.

صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ولا يكتمه منهم إلا جاحد معاند للحق، أو ضال جاهل؛ لأنه ما من نبي من الأنبياء، إلا وأخبره الله تعالى بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[1]. قال ابن عباس وغيره من السلف: (ما بعث الله نبياً، إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعث محمد وهو حي، ليؤمن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بُعث محمد، وهم أحياء ليؤمن به ولينصرنه)[2]؛ وقال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)[3]، وقال تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[4]، وقال تعالى: (ولما جاءهم كتاب مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)[5].

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على الآية الأخيرة، فيقول: "والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم في الكتب المتقدمة، متواترة عنهم. وكان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، تجري حروب وقتال، بين العرب وأهل الكتاب، فيقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي، الذي يُبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه، وقتلناكم معه شر قتله. فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به، فقال تعالى: (ولما جاءهم كتاب مصدق لما معهم وكانوا من قبل

---

(1) سورة آل عمران: 81.

(2) الجواب الصحيح، ابن تيمية، ج2/ ص120.

(3) سورة الأعراف: 157.

(4) سورة البقرة: 146.

(5) سورة البقرة: 89.

يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)[1]، أي: يستنصرون بمحمد صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا... ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه لأهل الكتاب، يقول: (والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله). وكذلك من أسلم منهم، كعبد الله بن سلام، كان يقول لغيره من أهل الكتاب: والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله. وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح، المخرجة في الصحيحين وغيرهما"[2].

ومنذ وقت مبكر، شرح عدد من العلماء المسلمين بشارات الأنبياء السابقين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، التي وردت في العهدين القديم والجديد، ومنهم على سبيل المثال: أبو الربيع محمد بن الليث، في رسالته التي صاغها على لسان الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السادس (163-181هـ/ 780-797م)، حيث أورد عشر بشارات بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وردت في العهدين القديم والجديد.[3] كما أفرد علي بن ربّن الطبري[4]، بابا كاملاً في كتابه (الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم)، هو الباب العاشر في نبوات الأنبياء السابقين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم.[5] وظل عدد من العلماء المسلمين خلال العصور التالية، يشرحون تلك البشارات، ويردّون بها على مزاعم النصارى، التي بدأها يوحنا الدمشقي بقوله الآنف الذكر.

ولكي يثبِّت يوحنا الدمشقي مزاعمه الداحضة، في عقول قرائه النصارى، بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك شيئاً يشهد له أن الله تعالى أنزل إليه الكتاب، وأن لا أحد من

---

(1) سورة البقرة: 89.

(2) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ج2/ ص366-367.

(3) رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم، شرح وتعليق أسعد لطفي حسن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1355هـ/ 1936م، ص93-98.

(4) كان أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري من علماء النصارى، وقد أسلم وهو في سن السبعين، على يد الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد. وقربه الخليفة المتوكل، وصنف عدداً من الكتب، منها: (الرد على النصارى)، و(فردوس الحكمة)، و(الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم). انظر مقدمة كتاب الدين الدولة.

(5) الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، طبعة القاهرة، 1342هـ/ 1923هـ.

الأنبياء تنبأ بظهوره، يتظاهر الدمشقي، وكأنه يوجه السؤال للمسلمين، فيقول: (وبعد ذلك، وعندما نحن نسأل كيف أن نبيكم لم يأت بهذه الطريقة، عن طريق أن آخرين يشهدون له بالنبوة، ولا حدث له مثلما حدث في قضية موسى، وهو أن الله أعطاه الشريعة، بينما كان الناس ينظرون والجبل كان داخل الدخان، وأن الله يعطيه مثلما تدّعون كتابكم المقدس في وجودكم. وأيضاً أنتم هل تملكون عهداً؟ هم – يقصد المسلمين – يجيبون: إن الله يفعل ما يريد. عند هذا نحن نقول: هذا أيضاً نعرفه، ولكن كيف نزل الكتاب المقدس إلى نبيكم؟ هذا هو الذي نسأل عنه. هم – يقصد المسلمين – يجيبون: إنه بينما كان نائماً، أُنزل عليه الكتاب المقدس. عندئذ نحن نقول لهم في مزاح، ذلك حسن. إذا كان نائماً حين تسلم الكتاب المقدس، ولم يملك إحساساً بهذه الحادثة، فإنه يصبح لزاماً على الناس أن يجعلونه مثلاً يُضرب به)[1].

وإذا تأملنا سؤال يوحنا الدمشقي، لماذا لم يتسلم محمد صلى الله عليه وسلم، الكتاب المقدس من الله مباشرة والناس ينظرون. فإن هذا السؤال يدل على سفهه، وقلة أدبه مع الله تعالى، حيث يتساوى بذلك مع كفار قريش، عندما عاندوا الحق، وجادلوا بالباطل، ورفضوا الإيمان بالقرآن، قال تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)[2]. والوحي إلى الأنبياء من البشر ظاهرة إلهية، ومعجزة خارقة للسنن الكونية، لا يمكن للبشر إدراك كنهها. وقد تلقى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله (القرآن)، بواسطة الملاك جبريل عليه السلام. وكان الوحي يتم خارج الذات المحمدية المتلقية له، وتنحصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في حفظ الوحي وتبليغه[3]، قال تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان

---

(1) Sahas: op. cit., p.135.

(2) سورة الإسراء: 90-92.

(3) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، ج1/ ص129-130.

وآتينا داوود زبوراً)[1]، وقال تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين)[2].

أما سؤال يوحنا الدمشقي للمسلمين. هل تملكون عهداً؟ فهو يريد بذلك أن ينفي أن يكون الله تعالى قد أقام عهداً مع إبراهيم عليه السلام، بأن يبعث من ذريته ابنه إسماعيل عليه السلام نبياً، وأن العهد الإلهي مقتصر فقط على إسحاق عليه السلام، كما جاء في سفر التكوين: (ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلاه لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية)[3]. ويوحنا الدمشقي يفعل مثلما يفعل علماء اليهود، الذين يعلمون أن كتابهم المقدس قد أشار بوضوح تام، إلى النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يبعثه الله من ذرية إسماعيل، (ولكنهم يكتمونه عن عوامهم)[4]. قال تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[5]. فأهل الكتاب – ومنهم يوحنا الدمشقي – يعرفون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمون الحق. وهذه المعرفة، بسبب الضغينة التي في صدورهم، والحقد الكامن في نفوسهم. وقد جاء في سفر التكوين، أن هاجر هربت من مولاتها سارة، (فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلي فتلدين أبناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن)[6]. وقد استدل عليّ ابن ربّن الطبري بهذا النص.[7] كما استدل به شيخ الإسلام ابن تيمية، وعلّق عليه بقوله: (معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، لم تكن فوق أيدي بني إسحاق، بل كان في بني إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن

---

(1) سورة النساء: 163.

(2) سورة المائدة: 67.

(3) تكوين: الإصحاح السابع عشر: 21.

(4) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، القس إنسلم تورميدا، ص138.

(5) سورة البقرة: 146.

(6) تكوين: الإصحاح السادس عشر، 9–11.

(7) الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربن الطبري، ص 73–74.

يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بُعث موسى. وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض. لم يكن لأحد عليهم يد. ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود، ومُلك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله. وسُلط عليهم بعد ذلك بختنصر، فلم يكن لبني إسماعيل يد. ثم بُعث المسيح، وخُرِّبت بيت المقدس الخراب الثاني... ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أُمماً، وكانوا تحت حكم الروم والفرس، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم. فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم، لا أهل الكتاب، ولا الأميين. فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع، حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم... فلما بُعث، صار ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم، وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين)[1].

وجاء في سفر التكوين أيضاً، أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأُكثره كثيراً جداً، اثنا عشر أميراً يلد، وأجعله أمة عظيمة). كما جاء في سفر التكوين أيضاً: (... ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها مالك يا هاجر، لا تخافي إن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمة عظيمة)[2]. ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على قول: أجعله أمة عظيمة، فيقول: (إن كانت تلك الأمة كافرة لم تكن عظيمة، بل يكون أباً لأمة كافرة، فيُعلم أن هذه الأمة العظيمة كانوا مؤمنين... أمة أثنى الله عليها وشرفها، وأن إسماعيل عظّمه الله جداً بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة)[3]، كما قدّم علي بن ربّن الطبري شرحه، لهذا العهد الذي منحه الله لإسماعيل – والذي يُنكره يوحنا الدمشقي – فقال: (إنه لو لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوءات الأنبياء في إسماعيل عليه

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ابن تيمية، ج5/ ص224–225.

(2) Holy Bible: New King James Version, Genesis: 17: 20.

وقد استخدمت هنا طبعة الملك جيمس الإنجليزية، لأنها أكثر دقة، ولأن مترجم الكتاب المقدس إلى العربية، ترجم عبارة عظيمة A great Nation إلى أمة كبيرة. تكوين: الإصحاح السابع عشر: 20.

(3) تكوين: الإصحاح الحادي والعشرون: 17–18.

السلام، وفي النبي عليه السلام خاتم الأنبياء بالضرورة؛ لأن الله عز وجل لا يخلف وعده، ولا يكذب خبره، ولا يخيب راجيه. وقد كان بشر إبراهيم عليه السلام وهاجر بشارات بيّنات سارّات، لم نراها تمت وظهرت إلا بظهور النبي صلى الله عليه وسلم)[1]. وبعد هذا، إذا كان بنو إسماعيل وثنيين، كما شرح يوحنا الدمشقي في بداية فصله، ثم تحولوا بعد ذلك إلى هراطقة على يد محمد صلى الله عليه وسلم – مثلما يزعم يوحنا الدمشقي، في صدر الفصل نفسه – فأين ذهب عهد الله لإبراهيم وهاجر – كما جاء في سفر التكوين – بأنه سوف يبارك إسماعيل ويثمّره، ويجعله أمة عظيمة؟؟؟؟

أما زعم يوحنا الدمشقي – الكذوب – بأن المسلمين يجيبون بأن القرآن نزل على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو نائم، بدون إحساس بذلك، وتعليقه المقيت أنه ينبغي على الناس أن يجعلوه مثلاً يُضرب به. فالحق الذي لا مراء فيه، أن يوحنا الدمشقي، هو الذي أصبح مثلاً يُضرب به، في الضلال والكذب والتشويه والتلفيق والافتراء. فلا يوجد مسلم واحد يجيب، أن القرآن أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، بينما كان نائماً، فاقداً الإحساس بنزوله عليه. فالمسلمون يعلمون علم اليقين، بنص القرآن والأحاديث الصحيحة، أن القرآن كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في أشد حالات اليقظة، وفي قمة الصفاء الذهني، وذروة الحضور العقلي، وأنه خلال تنزل الوحي عليه، يحرص أشد الحرص على تلقي الوحي وحفظه. وكان حرصه يصل به، إلى درجة أن يسارع إلى أن يحرك به لسانه وشفتيه، متابعاً جبريل عليه السلام، عندما يلقيه عليه، كلمة كلمة وآية آية، خشية أن ينسى منه شيئاً، أو تفوته آية، أو تند منه كلمه؛ لذلك أمره الله تعالى، أن لا يفعل ذلك، وأن لا يعجل في حفظه، ولا يحرك به لسانه وشفتيه، لأن الله تعالى تكفل بحفظه في صدره، وجمعه في ذاكرته، وبيان معانيه له، حتى يبلّغه للناس كاملاً مثلما أُنزل عليه، قال تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه)[2]، وقال تعالى: (فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن

(1) الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربن الطبري، ص72.

(2) سورة القيامة: 16–19. وانظر تفسيرها في تفسير ابن كثير، 8/286–287.

يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علماً)[1]. كما أن الله جل وعلا، قد كمّل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مراتب الوحي، وهي سبع مراتب، كما شرحها ابن القيم، في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.[2]

ويعود يوحنا الدمشقي فيكرر مزاعمه الداحضة، متظاهراً لقرائه، أنه يناقش المسلمين حول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول: (وعندما نسألهم مرة أخرى: كيف يكون ذلك، وكتابكم المقدس أمركم أن لا تفعلوا أي شيء، أو تتسلموا أي شيء بدون شهادة. فأنتم لم تسألوه: أثبت بالشهادة أنك نبيٌ، وأنك بُعثت من الله، وأي كتاب مقدس يشهد بشأنك؟ هم – أي المسلمون – يظلون صامتين بسبب الخزي. بعد ذلك أنتم لا تسمحون بزواج امرأة بدون شهادة، ولا تشترون شيئاً، ولا تحرزون ملكية إلا بشهادة، وأيضاً أنتم لا تمتلكون حماراً أو حيواناً أو تتنازلون عنه بدون شهادة. أنتم تمتلكون نساءً وأملاكاً وحميراً وكل شيء، من خلال الشهادة. وفوق ذلك، دينكم وكتابكم المقدس، أنتم تأخذونه بدون شهادة. وهذا سببه، أن الشخص الذي جاء به إليكم لا يملك أي شهادة من أي مكان، ولا يوجد هناك أي أحد يعرف من الذي يشهد له سلفاً، لكنه، علاوة على ذلك تلقاه بينما هو نائم)[3].

وهنا نلاحظ، أن يوحنا الدمشقي يعود إلى تكرار نفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بدعوى أنه لا يملك شهادة على صحة نبوته. وهدفه من هذا التكرار، تثبيت هذا الادعاء في عقول قرائه النصارى، ليصبح عقيدة راسخة في قلوبهم. وبالتالي، يقوي إيمانهم بدينهم، ويمنعهم من اعتناق الإسلام. وقد فات يوحنا الدمشقي، وهو ينفي وجود شهادة بصدق نبي الإسلام، أن في قوله: إن المسلمين لا يقبلون، ولا يمتلكون، ولا يتزوجون، ولا يبيعون، إلا بشهادة؛ دليل على أن أمة الإسلام، هي أمة العدل والقسط والشهادة على الناس. وهذا في حد ذاته، شهادة على عدالة دينها، وصدق نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد ذلك، يدافع يوحنا الدمشقي عن عقيدة النصارى، ويرد على الدعوى الإسلامية، بأنهم مشركين، بقولهم: إن المسيح هو ابن الله، وهو الله. ويدافع عن عبادة النصارى

---

(1) سورة طه: 114. وانظر: تفسير ابن كثير، 5/280-281.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ج1، ص76-80.

(3) Sahas : op. cit., p. 135.

للصليب. ثم يهاجم المسلمين، ويتهمهم بصورة تتصف بالتشويه والتلفيق، فيزعم أن المسلمين يعبدون الحجر الأسود، لأن إبراهيم عليه السلام جامع هاجر عليه، أو ربط جمله به. ويزعم أن الحجر الأسود عبارة عن رأس الصنم أفروديت، وأن آثار النقش الروماني لا يزال بادياً عليه.[1]

وبعد ذلك، يثير يوحنا الدمشقي في فصله قضية تعدد الزوجات في الإسلام.[2]

والملاحظ، أن يوحنا الدمشقي هو الرائد الأول لجميع أعداء الإسلام، الذين هاجموه من خلال قضية المرأة، لاسيما فيما يتعلق بتعدد الزوجات؛ فهو أول من أثار هذه القضية، في تاريخ الهجوم الفكري على الإسلام. وقد أثبت الواقع التاريخي، أن شريعة الإسلام في هذا الباب، هي شريعة الكمال والعدل. ولقد حمى التعدد المجتمع الإسلامي من المنزلقات الخطيرة، والانحرافات المخجلة، التي وقعت فيها المجتمعات غير الإسلامية. ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه القضية، فقد أوسعها الكثير من الباحثين دراسة ومناقشة، من جميع جوانبها، وفندوا كل دعاوى المغرضين.[3]

ويعود يوحنا الدمشقي مرة أخرى، إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فيصل في تشويهه إلى حد الإفك والبهتان، فيزعم أنه وقع في حب زينب بنت جحش، زوجة زيد بن حارثة رضي الله عنهما. ويخترع الدمشقي من عنده، نص حوار زعم أنه جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وزيد. ثم اتهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه اقترف الزنا مع زينب، ثم جعل هذا شريعة.[4] ولقد كان لهذا الإفك والبهتان، الذي زعمه الدمشقي، تأثير واسع

---

(1) Sahas: op. cit., pp. 135–137.

(2) Ibid., pp. 137–138.

(3) انظر على سبيل المثال: تعدد الزوجات ومعيار تحقيق العدالة بينهن في الشريعة الإسلامية، أحمد علي طه ريان، القاهرة، 1394هـ/ 1974م؛ حقوق النساء في الإسلام، محمد رشيد رضا، القاهرة، 1398هـ؛ الزواج والطلاق في الإسلام، زكي الدين شعبان، القاهرة، 1384هـ؛ حقوق المرأة في الإسلام، محمد عبد الله عرفة، القاهرة، 1398هـ؛ المرأة وحقوقها في الإسلام، ميسّر الطرازي، القاهرة، 1396هـ؛ المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، بيروت، 1987م؛ نظرات في تعدد الزوجات، محمد مسفر حسين الزهراني، الرياض، 1412هـ/ 1991م؛ فقه السيرة، محمد الغزالي، خرّج أحاديثه الألباني، بيروت، 1407هـ/ 1987م؛ ص 432–450.

(4) Sahas: op. cit., p. 139.

المدى على كُتّاب الغرب في جميع العصور، حيث شُغفوا به إلى أقصى حد، فصوروا حياة النبي صلى الله عليه وسلم مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، تصويراً جنسياً مقيتاً، ومعاكساً لحياته الحقيقية مع أزواجه[1] – التي اتصفت بالمودة والرحمة، والخير والصلاح، والتقوى والعبادة، والقدوة الحسنة التي يندر وجود مثلها في التاريخ البشري –، بُغية تنفير مجتمعاتهم من الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، للحيلولة دون تسرب الإسلام إلى تلك المجتمعات.

ويتحدث يوحنا الدمشقي في فصله، في نحو صفحة كاملة، حديثاً ساخراً مشوهاً عن معجزة نبي الله صالح عليه السلام، بعد أن ينزعها عن سياقها، وحقيقتها كما جاءت في القرآن الكريم. ويقدّم عدداً من التساؤلات المستهزئة والساخرة عن الناقة، وكيف تزوجت، وعن لبنها ونسلها وأين ذهبت بعد قتلها. ويقرر أنها دخلت في أرواح الحمير في جهنم، وأن المسلمين سوف يلحقون بها في النار الأبدية.[2]

ويختم يوحنا فصله، بتكرار ما سبق أن ذكره من أكاذيب، بأن القرآن مليء بالحكايات التافهة، المثيرة للضحك – بزعمه –، ويشير إلى المائدة التي طلبها المسيح من الله وإلى البقرة. ثم يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أمر أتباعه بالاختتان، وأن لا يحتفلوا بالسبت، ولا يُعمَّدون. ويزعم – كاذباً – أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، أمر أتباعه بأن يأكلوا كل ما كان محرماً في شريعة أهل الكتاب، وأن يمتنعوا عن أكل كلما سمحت به شريعة أهل الكتاب، وأن لا يشربوا الخمر.[3] وكان هدف يوحنا الدمشقي من هذا الزعم، هو إظهار شريعة المسلمين وكأنها على النقيض تماماً من شرائع أهل الكتاب، ليثير بذلك حفيظة كل من يقرأ فصله، على المسلمين ودينهم.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أنه على الرغم من أن المستشرق البلجيكي أرمان آبيل، قد شكك في موثوقية هذا الفصل، من زاوية نسبته إلى يوحنا الدمشقي، فإنه اعتبر أن المعلومات التي وردت في الفصل، تُقدّم حقائق صحيحة عن الإسلام وسيرة النبي محمد

(1) Daniel: Islam and the West, pp. 118-124.

(2) Sahas : op. cit., pp. 139-141.

(3) Ibid., p. 141.

صلى الله عليه وسلم، وليس فيه تشويه أو تحريف متعمد يُذكر. وقد تابع الأستاذ ساهاس آبيل في هذا الزعم [1]، الذي فنَّدناه في الصفحات السابقة.

أما العمل الجدلي البيزنطي الثاني، الذي اهتم بدراسة أرمان آبيل، فهو رسالة من أريثاس، من قيصرية Arethas of Caessrea، إلى أمير مسلم، بوصفها جواباً على رسالة أرسلها ذلك الأمير إلى الإمبراطور البيزنطي. وقد نشر آبيل دراسته في مجلة الدراسات البيزنطية، تحت عنوان:

La Lettre Polémique d'Arethas a l'Emir de Damas, Byzantion, Vol. 24, N. 2, (1954), pp. 343-370.

وقد توهم آبيل، أن ذلك الأمير المسلم هو أمير دمشق، حيث فسّر كلمة أميت Emet بأنها دمشق. ولم يُبيِّن آبيل الأساس الذي جعله يرجح أن كلمة أميت تعني دمشق.[2] وقد غاب عن آبيل، أن هناك مدينة أقرب إلى صيغة هذا الاسم من دمشق، وهي مدينة آمد، الواقعة في أعالي نهر دجلة، ضمن إقليم الجزيرة، وهي إحدى أهم مدن ديار بكر.[3] وإذا تأملنا خارطة آسيا الصغرى (بلاد الروم)، وإقليم الجزيرة، نجد أن آمد تقع إلى الشرق من قيصرية، وهي أقرب إليها من دمشق. هذا فضلاً عن أنها أكثر احتكاكاً ببيزنطية، إذا جرت محاولات عديدة من قبل الروم للاستيلاء عليها، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. حتى أنهم حاصروها في منتصف ذلك القرن، زهاء سبع سنوات، وأخفقوا في الاستيلاء عليها.[4]

---

(1) Abel: op. cit., p. 6; Sahas : op. cit., p. 128.

(2) Abel : La Lettre Polémique d'Arethas a l'Emir de Dams, Byzantion, Vol. 24, N. 2, (1954), pp. 343-345.

(3) انظر: صورة الأرض، ابن حوقل، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص201؛ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، عز الدين ابن شداد، الجزء الثالث، القسم الأول، تحقيق يحيى عبَّارة، طبعة دمشق، 1978م، ص253-259.

(4) المصدر السابق، ابن شداد، ص303-305.

مما يُرجح، أن المدينة المقصودة هي آمد، وليست دمشق، كما ذهب إليه آبيل، وتبعه في ذلك بعض الدارسين.[1]

وعلى أية حال، فالرسالة لا تتعرض مباشرة لسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، مثلما فعل يوحنا الدمشقي في فصله. وإنما انصبّت على محاولة دحض بعض الاعتراضات الإسلامية على العقائد والشعائر المسيحية؛ وهي الاعتراضات التي شاعت في كتب العلماء المسلمين، الذين ردوا على النصارى منذ وقت مبكر، وحتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. والرسالة تتضمن أخطاء وتناقضات عديدة، فهي تُبين أن أريثاس القيصري لاهوتي، شديد العداء للإسلام، يستخدم لغة ملتهبة مليئة بالسباب والشتائم، عندما يمر اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم. كما أنه لا يفقه شيئاً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو يخلط بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبين مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، ويشير إلى كلمة رسول الله باللغة العربية، وأنها تعني سفير الرب (Messenger of God). كما يذكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء لأتباعه بكتابين: أحدهما اسمه القرآن، والثاني اسمه الفرقان.[2]

ومن الاعتراضات الإسلامية، التي يحاول إريثاس الرد عليها، هي (كيف يمكن أن يكون الرب خالق الكون في بيئة محدودة غير طاهرة داخل رحم امرأة). ومن الاعتراضات الإسلامية التي يرد عليها أريثاس، (أن معجزات المسيح عليه السلام ليست فريدة، وأن أنبياء عديدون أنجزوا معجزات مشابهة، مثل موسى عليه السلام، ولم يدع أحد لهم الألوهية). ويعترض أريثاس على الاتهام الإسلامي للنصارى بالسجود للصليب، وتبجيل الآثار المقدسة عندهم، فيشن هجوماً معاكساً، يتهم فيه المسلمين بتوقير ملابس النبي محمد صلى الله عليه وسلم. كما يثير قضية تعدد الزوجات في الإسلام، ويهاجم المفهوم الإسلامي

---

(1) Abel: La Lettre Polémique d'Arethas a L'Emir de Damas, pp. 343-345; Abou- Seda, Al-Amin Abdel – Hameed: Byzantium and Islam (9th – 10th Centuries) A Historical Evaluation of the Role of Religion in Byzantine – Muslim Relations A Thesis Submitted to the University of Birmingham for the degree of Doctor of philosophy. (June. 2000), p. 241.

(2) Abel : La Lettre Polémique d'Arethas, pp. 356-364; Abou- Seda: op. cit., pp. 242-243.

عن نعيم الجنة. ويهاجم أيضا، مفهوم الجهاد في الإسلام، ويزعم أن الإسلام ينتشر بحد السيف.[1]

والعمل الجدلي البيزنطي الثالث الذي اهتم به المستشرق البلجيكي أرمان آبيل، هو رسالة قصيرة لراهب بيزنطي، يدعى بارثلميو الرهاوي Bartholomew of Edessa ونشرها تحت عنوان:

La refutation d'un Agarene de Barthelemy d' Edesse Islamica (1973) pp. 5-26.

وقد استخدم بارثلميو الرهاوي في رسالته لغة مهينة، وعبارات نابية ضد الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. كما لفق واخترع قصصاً عديدة، حول النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وحول قبره الذي زعم أنه في مكة.[2]

ويتوجه بارثلميو بعد ذلك، بالخطاب إلى محاوره المسلم الذي اخترعه، فيسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن يصفه بصفات معاكسة تماماً لصفاته الحقيقية، حيث زعم – زوراً وبهتاناً – أنه (شهواني وملوث، وقاطع طريق وقاتل وسارق ومتهتك، وكذاب ومخادع). ثم يخاطب محاوره المزعوم، قائلاً: (قل لي بربك، ماذا تعني بالنبوة والرسالة، والله يعلم أنكم لم تكونوا تستطيعون أن تعلموا شيئاً لو لم يعلمكم المسيحي. ثم بعد ذلك، أيها المخلوق المعاند، ألا تخجل، وأنت تقول: إن نبيكم موتشاميت Mouchamet ظل اثنين وثلاثين عاماً، وهو لا يتكلم كلام الأنبياء، ولا كان في أثنائها رسولاً، ولا معلماً، ولا حتى رجلاً ورعاً، ولا عرف شيئاً عن الله، وأنه عرفه بعد تلك الحقبة. فإذا كنت لا تنكر هذا، فكيف لا يجب عليّ، وأنا المسيحي، أن أُنكر حوادث تلك السنوات الخمس عشرة التالية. ولكن أخبرني، كيف استطاع أن يعرف الرب، وبأية وسيلة عرفه. وبعد ذلك، يقول ملاك الرب: هو رسول الرب إليه وإلى الناس، وهو لا شيء سوى أنه كذّاب. وإذا كنتم

(1) Abel: La Lette Polémique d'Arethas, pp. 364-369; Abou – Seda; op. cit., pp. 244-245.

(2) Bartholomew of Edessa, Elenchus et confutation Agareni, J. P. Migne, Patrologia series Graeco Latina 104, 1384-1448, ed with parallel German Translation: Bartholomaios Von Edessa, Confutatio Agareni, Von Klaus- Peter Todt, (Altenberge 1988), Col. 1412.

تسمونه نبياً، فأخبرني بماذا تنبأ، وبأي لفظ تنبأ، وما هي وصاياه، وما هي الآيات والعجائب التي صنع. لقد قرأتُ كل كتبكم، واكتشفت كل شيء بنفسي)[1].

وإذا تأملنا هذا النص، الذي كتبه بارثلميو الرهاوي، نجده مستمد في معظمه من فصل يوحنا الدمشقي، الذي عرضناه آنفاً، مما يشير إلى أنه كان لفصل يوحنا الدمشقي، تأثير طاغ على كل الكتابات البيزنطية التالية، التي تناولت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، عز الدين ابن شداد، الجزء الثالث، القسم الأول، تحقيق يحيى عبَّارة، طبعة دمشق، 1978م.
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، الأمير شكيب أرسلان، بيروت، 1983م.
- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، القس إنسلم تورميدا، الشهير بعد الله الترجمان الأندلسي، تقديم وتحقيق وتعليق محمود علي حماية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992م.
- تعدد الزوجات ومعيار تحقيق العدالة بينهن في الشريعة الإسلامية، أحمد علي طه ريان، القاهرة 1394هـ/ 1974م.
- تفسير ابن كثير، وضع حواشيه وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م.

(1) Ibid., Col. 1388-1389; La (Refutation d'un Agarene) de Barthelemy d'Edesse, pp. 25-26; Grunebaum Gustave. E.: Medieval. Islam Astudy in Cultural Orientation, (London, 1970), pp. 45-46.

– تكوين: الإصحاح الثاني، والإصحاح السادس عشر، والإصحاح السابع عشر، والإصحاح الحادي والعشرون.
– التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، تصحيح عبد الله الصاوي، القاهرة، 1357هـ/ 1938م.
– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.
– الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ابن تيمية الحراني، تحقيق علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ.
– حقوق المرأة في الإسلام، محمد عبد الله عرفة، القاهرة، 1398هـ.
– حقوق النساء في الإسلام، محمد رشيد رضا، القاهرة، 1398هـ.
– دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، حسنين محمد ربيع، القاهرة، 1403هـ/1983م.
– الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ابن ربن الطبري، طبعة القاهرة، 1342هـ/ 1923هـ.
– رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم، شرح وتعليق أسعد لطفي حسن مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1355هـ/ 1936م.
– رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي.
– الرؤية الأوروبية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى، علي محمد عودة، ضمن كتاب: العرب وأوروبا عبر العصور، حصاد (7)، ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره في القاهرة، 1420هـ/1999م.
– زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخيه، بيروت، 1405هـ/1985م.
– الزواج والطلاق في الإسلام، زكي الدين شعبان، القاهرة، 1384هـ.

– سنن الترمذي، تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، 1395هـ/1975م.
– السير النبوية، الذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، بيروت، 1409هـ/1998م.
– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، طبعة المدينة المنورة، 1412هـ/1992م.
– السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، الرياض، 1412هـ/ 1992م.
– صورة الأرض، ابن حوقل، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
– فتح الباري، طبعة القاهرة، 1409هـ/1988م.
– فقه السيرة، محمد الغزالي، خرّج أحاديثه الألباني، بيروت، 1407هـ/ 1987م.
– الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عبد المجيد الشرفي، طبعة تونس، 1986م.
– في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، 1423هـ/2003م.
– المرأة وحقوقها في الإسلام، ميسّر الطرازي، القاهرة، 1396هـ.
– المرأة في القرآن والسنة، محمد عزة دروزة، بيروت، 1987م.
– المستشرقون، نجيب العقيقي، القاهرة، 1980م.
– المصنف، ابن أبي شيبة، تحقيق مختار الندوي، بومباي – الهند 1403هـ/1983م.
– موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، طبعة بيروت، 1993م.
– نظرات في تعدد الزوجات، محمد مسفر حسين الزهراني، الرياض، 1412هـ/ 1991م.
– Abel Armand: La Lettre Polémique d'Aréthas, a l' Emir de Damas, Byzantion, Vol. 24, N. 2, (1954).
– Abel, Armand, Le Chapitre CI du Livre Des Heresies de Jean Damascene: son inauthenticité, Studia Islamica, N. 19, (1963).

- Abou- Seda, Al-Amin Abdel – Hameed: Byzantium and Islam (9th – 10th Centuries) A Historical Evaluation of the Role of Religion in Byzantine – Muslim Relations A Thesis Submitted to the University of Birmingham for the degree of Doctor of philosophy, (June. 2000).
- Bartholomew of Edessa, Elenchus et confutation Agareni, J. P. Migne, Patrologia series Graeco Latina 104, 1384-1448, ed with parallel German Translation: Bartholomaios Von Edessa, Confutatio Agareni, Von Klaus- Peter Todt, (Altenberge, 1988), Col 1412.
- Daniel Norman: Islam and the West, the Making of an Image, (Oxford, 2000).
- Daniel, Norman: The Arabs and Mediaeval Europe, (London, 1975).
- Grunebaum Gustave. E.: Medieval. Islam Study in Cultural Orientation, (London, 1970).
- Holy Bible: New King James Version, Genesis.
- Kritzeck, James: Peter the Venerable and Islam, (Princeton University press, New Jersey, 1964).
- La (Réfutation d'un Agarène) de Barthélémy d'Edesse, Studia Islamica, (1973).
- Sahas, Daniel J., John of Damascus on Islam, the Heresy of the Ishmaelites, Leiden, (1972).
- Southern. R. W: Western Views of Islam in the Middle Ages, (London, 1978).